نظـــرات في سيرة يوسف عليه من اللّه التسليم والرحمة

إعداد/

سعد راشد المطيري

أحسن القصص التي وردت في القرآن مجموعة في موضع واحد هي سورة يوسف فليس لها موضع سوى في هذه السورة .

۞ إنما ذكر الله سورة يوسف تسلية لنبيه الكريم ليتأسى بصبر الرسل قبله وما حصل لهم من العاقبة الحميدة حيث انقلبت مخاوفهم إلى أمان وتمكين.

۞ يوسف عليه من الله التسليم والرحمة وما جرى له مثال عظيم لعاقبة الصبر واليقين، ألقي بالجب وزج به بالسجن وتعرض لظلم إخوته ومراودة النسوة ثم بعد ذلك صار عزيز مصر له السلطان على خزائن الأرض.

۞ أعظم ما يتعلمه المؤمن من سورة يوسف أن إمامة الدين تكون باجتماع أمرين هما : الصبر واليقين، فمن أيقن بوعد الله وصبر على أمره فهو إمام.

۞ في سورة يوسف بيان لما تعيشه مصر في ذلك الحين من رخاء ونماء ورغد عيش وفيه بيان لتاريخها القديم ومجدها العظيم.

۞ مما ورد عن السلف: سيرة يوسف فيها سلوة لكل محزون. ذكر ابن القيم أنه جمع ألف فائدة من سورة يوسف، وهذا لسعة علمه رحمه الله.

۞ نال يوسف أشرف سلسلة نسب فهو يوسف بن يعقوب بن إسحق بن ابراهيم فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

۞ أوتي يوسف شطر الجمال ويقال إنه إذا مشى في مصر تلألأت جدرانها من حسنه ونور وجهه.

۞ في سورة يوسف اختبار لصبر الصبي الصغير والشيخ الكبير، فهو اختبار ليوسف ويعقوب.

۞ من فوائد سورة يوسف مشروعية كتمان النعم عن أعين الحاسدين قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾

۞ رأى إخوة يوسف أن والدهم ضل في تفضيل يوسف لكونهم أكثر وأكبر وأقوى فهم عصبة وهو واحد ومع ذلك هيأ الله للواحد ما عجزت عنه الجماعة.

۞ بيع يوسف بدراهم معدودة وزهدوا فيه مع أنه نبي، ليست العبرة بميزان الخلق وتقييمهم وإنما العبرة بميزان الله وعلمه.

واختلفوا فيمن هو المقصود بالنص القرآني هل هم أصحاب السيارة أم إخوته فقد روي أن إخوته ظلوا يترقبون فلما جاءت السيارة قالوا لهم هذا عبد آبق وسنبيعه لكم.

۞ ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ ﴾شروه في اللغة العربية بمعنى باعوه.

۞ جاء إخوة يوسف عشاء يتظاهرون بالبكاء معهم القميص وعليه دم شاة وزعموا أن الذئب قد أكل يوسف وقد علم كذبهم حين رأى القميص غير ممزق، فقال لهم أي ذئب حليم يأكل يوسف دون أن يمزق قميصه فصار القميص دليل إدانة لهم.

۞ مما يستفاد من سورة يوسف أنه قد يلقن بعض الخلق الجاني حجته دون أن يشعر فحين قال يعقوب لبنيه ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ رجعوا وقالوا : ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ ﴾.

۞ أخذ السيارة يوسف من البئر التي وجدوه فيها في بيت المقدس بعدما تعلق بالدلو وباعوه في مصر فاشتراه العزيز وذلك لفراسته وحسن ظنه به.

أعظم الخلق فراسة، العزيز حينما اشترى يوسف وتوسم فيه النجابة، وموسى حينما اختار هارون للنبوة، وأبو بكر حينما ولى عمر رضي الله عنهما.

۞ بيع يوسف وذهابه إلى مصر نهاية أول فصل من سيرته وهو فصل الفراق وترك وطنه وأهله ووالده، وبداية فصل الرق والفتنة ومراودة النساء من قبل امرأة العزيز ونسوة المدينة، يعقبه فصل السجن

الذي دعا فيه يوسف إلى التوحيد ثم فصل الملك والسلطان واجتماع الشمل ووقوع الرؤيا التي رآها في طفولته.

۞ فائدة في معنى قوله تعالى :﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾: لفظ الإيمان إذا عدي باللام فإنه يراد به المعنى اللغوي وهو مطلق التصديق، وإذا عدي بالباء أريد به المعنى الشرعي وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ وقوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾

۞ فائدة في معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ ﴾ : اختلف أهل التفسير فيها على قولين أولهما أن الذي وجده نادى وأخبر من كان معه واسمه بشرى، والقول الثاني أنهم استبشروا به وفرحوا حين وجدوه.

۞ ترعرع يوسف في ظل قصر العزيز وفتنت به امرأة العزيز وقد رأت جماله الذي فاق به الخلق واستحوذ على مجامع القلوب إذ أوتي شطر الجمال وبلغ مبلغا عظيما في نفسها.

۞ عف يوسف رغم اجتماع دواعي الشهوة : شاب لم يجرب النساء مطلوب وليس بطالب لجماله والتي دعته سيدته ولها السلطان غلقت أبواب القصر وتهيأت له، ومن دواعي الشهوة التي اجتمعت في حق يوسف الغربة وما استعمل معه من وطأة الترهيب والترغيب وعدم وجود غيرة من زوجها حينما علم بأمرها.

۞ مفاسد عدم غض البصر حيث أردى امرأة العزيز وأورث العشق وعمى القلب والبصيرة، ولذلك قيل :

إن الحوادث مبداها من النظر ∴ ومعظم النار من مستصغر الشرر

۞ من جميل ما قيل في مفاسد النظر :

وأنت متى أرسلت طرفك رائدا ∴ لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر ∴ عليه ولا عن بعضه أنت صابر

۞ أمر الله عباده بغض البصر بقوله: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾وقوله : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ فالنظر مورد يصب على القلب.

۞ لم ينس يوسف فضل سيده حينما راودته امرأته فقال لها : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ فهرب منها إلى الباب فقدت قميصه من دبر فألفيا سيدها لدى الباب.

سارعت بإلقاء التهمة على يوسف واختارت العقاب ما بين السجن والعذاب.

۞ من لطف الله بأولياءه إظهار براهين براءتهم وأدلة نزاهتهم، حيث جعل الله قميص يوسف سبباً في براءته حينما رأوا القطع من جهة الدبر وهذا فيه دليل على مشروعية القضاء بالقرائن إذا ظهر للقاضي قوتها.

۞ ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ لم يسموها باسمها حين نسبوا الخبر لها، بل قالوا امرأة العزيز فزوجها أشهر منها والنفوس متشوفة لسماع أخبار ذوي الجاه والشهرة.

۞ ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ : وصف بليغ لما وصلت إليه امرأة العزيز فالحب مراتب أعظمها هو الذي يأخذ بشغاف القلب.

۞ دعت امرأة العزيز النسوة بعدما سمعت المقالة التي جرت على ألسنتهن وأعدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا، قطعن أيديهن لما رأين يوسف ودماؤهن تقطر وأعينهن شاخصة وألسنتهن تصفه بأنك ملك وهو يسأل الله أن يخلصه منهن.

۞ قويت عند يوسف جميع دواعي الشهوة وقطعت جميع الصوارف عنها، مع ذلك قال :﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ لذلك عظم ثواب ترك المعصية.

۞ يروي أهل التفسير أن امرأة العزيز قالت إن هذا الفتى العبراني فضحني فإما أن تطلقني أو تسجنه، فأمر به أن يطاف به في مصر وينادى هذا جزاء من يعتدي على سيدته ثم سجنه، وكان ابن عباس إذا قرأ هذا الخبر بكى وهو مما يروى عن بني إسرائيل.

۞ أعظم فصول سيرة نبي الله يوسف الصديق عليه من الله التسليم والرحمة مرحلة السجن حيث استجاب الله لقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ﴾

۞ لبث يوسف في السجن بضع سنين يقال إنها سبع ولبث قبلها في الرق والعبودية سنوات ومع ذلك لم تفت من عزيمته وإنما صقلته ونمت مواهبه.

۞ المحسن يعرف بهديه وسمته مهما كان منزله قالوا ليوسف في السجن إنا نراك من المحسنين وقالوا له في الملك إنا نراك من المحسنين، وقد سجن مع يوسف فتيان طلبا منه تأويل رؤاهما حيث رأى أحدهما أنه يعصر خمرا ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه.

۞ أول ما دعا إليه يوسف في السجن هو التوحيد وذلك قبل أن يؤول الرؤى لمن سأله : ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

۞ أول يوسف الرؤيا فأخبر الذي يعصر الخمر أنه سيعود لعمله ساقيا عند الملك وأخبر صاحبه بأنه سوف يصلب، وطلب يوسف ممن ظن نجاته أن يذكره عند الملك فنسيه ولم يذكره بضع سنين، فأرسل الله الرؤيا التي أقضت مضجع الملك فاستدعوه استدعاء حاجة واستعانة وصار الفضل له عليهم.

۞ الرؤى على حسب المنزلة فالسجين يرى ما يتعلق بمصيره والملك يرى ما يتعلق بمصير شعبه ورعيته، وقد أول يوسف رؤيا الملك بأنه سيمر عليهم سبع سنوات خصب يتبعها سبع سنوات جدب يعقبها عام فيه يغاث الخلق، وأرشدهم إلى إدخار المحاصيل وحفظها في سنابلها لسنوات الجدب.

۞ أعظم ما يستفاد من الرؤى التي مرت في سورة يوسف أثر الرؤى في كشف ستور الغيب وحبلى الأيام وخزائن الليالي.

۞ من أدب يوسف في حديثه مع صاحبي السجن نسبة العلم والتعليم لله حين قال : ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾

۞ تأويل الرؤى يعد من الفتوى قال تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾

۞ إظهار البراءة مطلب شرعي، أبى يوسف ترك السجن حتى يرجع الرسول إلى الملك ويسأله لماذا قطع النسوة أيديهن ؟ فقد رمي ظلما وحق له أن يبرئ نفسه، وذلك بعدما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه لما رأى من حسن تدبيره وعلمه.

۞ من أدب يوسف مع سيده أنه لم يتهم امرأته ولم يشر لها بل قال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ ﴾ حفظا للود وسابق العهد مع سيده.

۞ قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾هذا ما طلبه يوسف حين قربه الملك.

و يستفاد من هذا النص القرآني :

مشروعية طلب التولية لمن رأى في نفسه القدرة عليها، أيضا الحفظ وهو أمانة وقوة مع العلم أمور يجب توافرها فيمن يتولى أمور الخلق العامة.

۞ أعظم ما يستفاد من سيرة يوسف : فضيلة العفاف عن المحارم وصيانة أعراض العباد حيث رفعت من قدر يوسف وعظمت منزلته.

۞ انتهت مرحلة الرق والسجن من سيرة يوسف لتبدأ مرحلة الملك والسلطان ويسوق الله إخوته الذين ظلموه ليقفوا بين يديه موقف السؤال والذل بين يدي يوسف العزيز، جميع سير العظماء بما فيها سيرة يوسف عليه من الله التسليم والرحمة تمر بمرحلتين مرحلة اختبار وامتحان، ومرحلة النصر والتمكين.

۞ مقارنة بين العلم والجمال والحب :

محبة يعقوب ليوسف جلبت له الحسد من إخوته حتى ألقوه في الجب ثم صار عبدا في مصر، والجمال هو الذي جلب له كيد النسوة حتى دخل السجن.

بينما العلم والتقوى والعفاف هو الذي رفع عنه الظلم والرق وأورثه الملك والسلطان وجمع شمله.

۞ ورد إخوة يوسف عليه فعرفهم ولم يعرفوه فهم لم يتصوروا أن هذا الفتى الذي ألقوه في الجب قبل أربعين سنة صار على خزائن الأرض، فأمرهم أن يأتوا بأخيهم من أبيهم ليوفي لهم الكيل فرجعوا إلى أبيهم فأعطوه العهود حتى أخذوا أخاهم .

۞ رواية ابن عباس في أول موقف بين يوسف وإخوته :

لما دخل إخوة يوسف فعرفهم وهم له منكرون، جيء بالصُّوَاع، فوضعه على يده، ثم نقره فطنَّ، فقال: إنه ليخبرني هذا الجامُ أنه كان لكم أخٌ من أبيكم يقال له يوسف، يدنيه دونكم، وإنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب! قال: ثم نقره فطنَّ، فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدَمٍ كذب! قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم.

قال ابن عباس : فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم: (لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون).

۞ مشروعية الوقاية من العين :

أمر يعقوب بنيه بالدخول من أبواب متفرقة فاجتماعهم مع جمالهم وعددهم ومنزلتهم عند الملك من موجبات إصابتهم بالعين.

۞ ورد إخوة يوسف عليه الورود الثاني ومعهم أخوهم من أبيهم، فقربه وأخبره بأمره، وأخبره بحيلته وهي وضع الصواع في رحله، وفي ذلك مشروعية استعمال الحيل حيث وضع يوسف الصواع في رحل أخيه ليخلصه منهم ولم يبدأ بتفتيش متاعه حتى يخفي تدبيره للحيلة.

۞ من أدب يعقوب حينما أرسل ابنه معهم قبل ورودهم على يوسف أنه قال :﴿ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ ﴾.

۞ فإنه بعد أداء ما يتعين عليك فوض أمرك لله فالقدر يمضي مهما اجتهدت فالجأ إلى من يقدر المقادير.

۞ لما كان لهم حاجة بأخيهم قالوا : ﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا ﴾ ولما انتهت حاجتهم قالوا: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ ﴾وهذا حال غالب الخلق تبديل الخطاب حسب الحاجة والمصلحة.

۞ وقع المقدور وفقد يعقوب ابنه الثاني وأبى كبيرهم الرجوع معهم فحزن ،﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾

وفي ذلك أثر الحزن في إنهاك البدن ومرض الجسم حيث أبيضت عينا يعقوب عليه السلام وذلك حين ابتلي بفقدان أحب الخلق إليه.

۞ الورود الثالث على يوسف هو مسك الختام حيث قال لهم يوسف : ﴿ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ وليس ثمة مشهد أقسى من لقاء الظالم بالمظلوم بعد غياب طويل بوقفة ذل وسؤال بين يدي المظلوم.

حينئذ عرفوه وطلبوا العفو والغفران فقال يوسف : ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾.

۞ أعطى يوسف إخوته القميص وأمرهم بأن يلقوه على وجه أبيهم ليعود بصيرا، ويأتوه بجميع أهله إلى أرض مصر، وهذا القميص الثالث في قصة يوسف حيث إن أول قميص هو الذي جردوه منه ولطخوه بدم الشاة والثاني الذي قدته امرأة العزيز.

۞ جاء البشير وألقى القميص على وجه يعقوب فعاد إليه بصره وذهبوا إلى مصر فاستقبلهم يوسف الصديق بقوله : ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾

۞ ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾

في هذا النص القرآني فوائد :

- لم يقل الجب لكون المنة بخروجه من السجن أعظم فقد كان خروجه من السجن للملك ومن الجب للرق.

- لم يرد يوسف أن يحزن إخوته ويذكرهم بما فعلوا فقال السجن ولم يقل الجب فهم الذين ألقوه في الجب.

۞ ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾

من التأدب مع الله نسبة الحسنات له والسيئات للنفس والشيطان ؛ حيث نسب يوسف الفضل في خروجه من السجن لله ونسب النزغ بينه وبين إخوته للشيطان.

۞ في سورة يوسف تعليم بأن تعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك.

لم يطلب يوسف بعدما نال الملك وجمع الله له شمله وعلمه تأويل الرؤى سوى حسن الخاتمة، ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ﴾

۞ **وقفات في ختام سورة يوسف :**

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾: ليس يأسا من رحمة الله ونصره وإنما هو يأس من قبول قومهم للدعوة، متى ما أيس الرسل من قومهم ومن قبولهم للهداية جاءهم النصر من الله وأهلك أعداءهم.

۞ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾: من فوائد سورة يوسف أن من شروط الدعوة إلى الله البصيرة والعلم.

۞ ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾: من فوائد سورة يوسف أنه قد يجتمع في العبد إيمان وشرك، إيمان بالربوبية وشرك بالعبادة.

۞ أثر القصص والسير في تثبيت القلوب وقصها من أساليب التربية لما فيها من العبر.

۞ هذا ما وقفت عليه وأحببت عرضه من فوائد في سورة يوسف وأسأل الله أن يكون الجمع موفقا مرتبا مفيدا للقارئ والسامع.